المقامة في الأدب المغربي والأندلسي – القرن الثامن للهجرة نموذجا–

د.عبد العزيز بومهرة
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة 8 ماي 1945– قالمة

Résumé

Bien que la Séance (maqâma) ait atteint tout son épanouissement au huitième siècle de l'hégire au Maghreb et en Andalousie, les hommes de lettres de l'époque lui accordèrent peu d'importance par rapport à d'autres arts de prose. Ces auteurs ont écrit environ dix Séances (maqâmât,) dont une seulement a respecté les normes de la Séance (maqâma) hamadhanienne; les autres oscillèrent entre voyage et jactance, mais dans leur forme, elles ont conservé les éléments connus de la Séance (maqâma,) comme la rime, la paronomase, et autres procédés de rhétorique et d'élocution. Ibn Elkhatib écrivit, en prédécesseur, ces Séances (maqâmât) à l'exemple de khatirat et tayf (i.e. Pensée du Spectre), mi'yâr l ikhtiâr (i.e. Critère de Choix), mufakharah bayn malqah wa sala (i.e. Jactance entre Malaga et Salé), El Azdi écrivit la maqâma l 'îd (i.e. Maqâma de la fête de l'Aïd), Abdulmuhaymin El Hadhrami maqâma el iftikhâr (i.e. Maqâma de la Fierté), et El Nubahi maqâmat El Nakhla (i.e. Maqâma du Palmier) etc. La plupart des Séances (maqâmât) se rapportaient au vécu des Andalous et des Maghrébins, à leurs soucis et leurs intérêts quotidiens.

ملخص

على الرغم من ازدهار المقامة، خلال القرن الثامن للهجرة، في المغرب والأندلس فإنها لم تحظ بالاهتمام الذي أولاه أدباء العصر لفنون نثرية أخرى. كتب هؤلاء الأدباء حوالي عشر مقامات، لم تلتزم سوى واحدة منها بقواعد المقامة الهمذانية، وتوزّعت الأخرى بين الرحلة والمفاخرة، ولكنها، من الجانب الشكلي، حافظت على مقومات المقامة المعروفة، بما حفلت به من سجع وجناس، وغير ذلك من ألوان البديع والبيان. نال ابن الخطيب قصب السبق في تأليف هذه المقامات، كعادته في فنون النثر الأخرى؛ فكتب" خطرة الطيف، ومعيار الاختيار، "ومفاخرة بين مالقه وسلا"، وكتب الأزدي" مقامة العيد"، وعبد المهين الحضرمي" مقامة الافتخار"، والنُّباهي" مقامة النخلة"،...الخ. أبرزت معظم المقامات واقع الأندلسيين والمغاربة، وهمومهم واهتماماتهم اليومية.

مدخل:

عرف المغاربة والأندلسيون فن المقامة[1]، في أثناء وجودهم بالمشرق، خلال رحلاتهم، فقد كانوا ينقلون مشاهداتهم وقراءاتهم إلى مواطنيهم حين يعودون، فتصدى لذلك بعضهم عن طريق حلقات التدريس، فيما لجأ آخرون إلى كتابتها"رحلة". **فضلا** عن نقل الآثار الأدبية بنصها ونسخها، ونشرها في الأندلس والمغرب.

يبدو أن هذا هو ما حصل للمقامة، فقد ظهرت ملامحها في الأدب الأندلسي منذ ازدهارها على يد الهمذاني[2]، إلاَّ أن شغف الأندلسيين والمغاربة بدا واضحا بما طرأ عليها من تطور على يد تلميذه الحريري، وبخاصة بعدما سمعوها منه ببغداد، كما ذكر ابن الأبار[3].

ومنذ بداية عهد الموحدين نشط الأندلسيون والمغاربة في تعاطي فن المقامة إبداعا، وشرحا، ومعارضة.

المقامة في القرن الثامن:

لم يحظ فن المقامة في القرن الثامن بعناية كبيرة من قبل الأدباء المغاربة والأندلسيين، قياسا بالكثرة الملحوظة في فنون نثرية أخرى؛ فلم نعثر إلا على عدد قليل من المقامات لا يتجاوز العشر، طغى عليها ابن الخطيب، كعادته في فنون أدبية مختلفة؛ فكتب أكثرها، وكتب عبد المهيمن الحضرمي(749هـ)، وعبد الله الأزدي (750 هـ)، وابن الحسن النباهي[4] (توفي بعد 792 هـ) ما تبقى مما عرف منها، ولا يبدو أن الأمر قد قُطع بانعدام غيرها.

يلاحظ الباحث، من القراءة الأولى، تنوُّعا في موضوعات المقامة، وثراء في اهتماماتها، وتعددا في اختصاصاتها، كما أنها لا تعدم، أحيانا، تفردا وخصوصية؛ إذ يبدو أن المقامة في ذلك العهد، بخاصة، أخذت تطرح عنها بعض القيود التي قننها بديع الزمان الهمذاني منذ قرون خلت، حين استحدث الكتّاب لأنفسهم قواعد جديدة. وإذا كانت بعض المقامات قد حافظت على ملامح الموضوع في المقامة البديعية والحريرية، فإن القسم الأكبر منها تخلَّى عن تلك الملامح، واتجه وجهة تكاد تفقده ركائز هامة من فن المقامة المعروف.

ولعله يكفي أن نعرف أن" **مقامة العيد**" للأزدي [5]هي المقامة الوحيدة التي ظهر فيها عنصر الكُدْية واضحا، واقتربت إلى حدٍّ كبير من المقامات التي شاعت على يدي الهمذاني والحريري، أما ما عداها فقد راوحت بين الاهتمام بالرحلة تارة، مثل: مقامات ابن الخطيب: "**خطرة الطيف**"، و" **معيار الاختيار**"، و" **قطع الفلاة**"[6]، والمفاخرة طورا آخر مثل: مقامة "**الافتخار**" لعبد المهيمن الحضرمي[7]، و" **مفاخرة بين مالقة وسلا** "لابن الخطيب[8] ومقامة "**النخلة**" للنُّباهي[9].

والملاحظ أن هذا الاتجاه الجديد لا يخلو من لقطات أصيلة تضفي على المقامة روحها المألوفة؛ من خفة حركة، ورشاقة عبارة، وحيوية سرد، أشاعها إلحاح المبدع على عنصر الحوار، واحتفاظه ببعض شخوصها التقليديين، وإغنائها بتسجيل هموم الحياة في مظاهرها الاجتماعية، والاقتصادية المختلفة، على الرغم من طغيان الطابع الجغرافي في بعض الأحيان، كما في"معيار الاختيار"بخاصة .

موضوعات المقامة:

من اليسير على الباحث ملاحظة الاهتمامات الاجتماعية، والمعيشية في معظم المقامات، بما فيها تلك التي اتجهت وجهة جغرافية بحتة؛ فقد حفلت بإبراز الجوانب الاجتماعية، والاقتصادية لسكان المدن التي يصفها البطل، كما برزت في مقامات أخرى بعض القيم الأخلاقية التي نلحظها في بعض سلوكات شخوص المقامة؛ فإجابة بطل مقامة " **قطع الفلاة** " ، مثلا عن الشخصيات التي يُسأل عنها الراوي، تصب في هذا المنحى. هذا فضلا عن قيمتها الأدبية الفائقة الأهمية، إبداعا، وتأريخا لذلك العهد؛ فقد زخرت " **مقامة العيد** " للأزدي، مثلا، بمعلومات وافية، مع أن موضوعها كان شراء أضحية العيد؛ ذلك أن براعة الكاتب، مع أنه مقلٌّ، مكَّنته من حشد مظاهر متعددة خدمت الموضوع الرئيس بدقة فائقة، أبانت عن مدى قدرته على الرصد والحـــركة، مما أسهم في تصعيد

وتيرة الانشداد نحو تجمع أطراف الموضوع الأساس؛ فالزوجة الشرسة، التي تطرد زوجها لأنه تأخر عن شراء أضحية العيد في بداية المقامة، لم تغيِّر من سلوكها العنيف معه حين أتى، في الأخير، وهو يجر تيسا ضخما، معلنة أنها لن تفرح ما دام العنز أضحيتها. تقول:«..والله لو كان العنز يخرج الكنز، ما عمّر لي دارا، ولا قرب لي جوارا، اخرج عني يا لكع فعل الله بك وصنع، وما حبسك عن الكباش السمان، والضأن الرفيعة الأثمان، يا قليل التحصيل، يا من لا يعرف الخياطة ولا التفصيل! أدلّك على كبش سمين، واسع الصدر والجبين، أكحل عجيب، أقرن مثل كبش الخطيب..» [10] فتفضيل الضأن عن العنز وإن كان شرعيا، إلا أنه اتخذ طابع المباهاة والمفاخرة أكثر مما هو دعوة إلى تطبيق مقتضيات الشرع، وبخاصة إذا كانت هذه الزوجة بصورتها المرسومة في المقامة هي التي ترفع عقيرتها بالدعوى. ثم، هي ذي، تشتم زوجها بأقذع الشتائم، فهو لكع أحمق لا يحسب الأمور بدقة، لأنه لم يلبِّ رغبتها في الكبش السمين الأسود ذي القرون الطويلة [11] مثل كبش خطيب المدينة الذي كان، فيما يبدو، قدوة للمجتمع الأندلسي. ولو أن هذه الزوجة المتهافتة أضافت، إلى مجموع مواصفاتها لهذا الكبش العتيد، ضرورة مناطحته كبش الجيران، وغلبته له، لما تميزت عن أي صبي في المغرب العربي اليوم. ومردُّ هذه النقمة، والهيجان أن الزوج المسكين المعدم لم يفعل « **كما فعل زوج الجارة، طيب الله نِجاره، وملأ بالأرزاق وِجاره** »[12] إذاً، فإن الأمر يتعلق بعدة أبعاد تتحرك الزوجة في محورها، فهي من جهة لا تريد أن يفضلها أحد بشأن أضحية العيد زمنا، ونوعا. ولذا وجب على الزوج أن يتدبر الأمر مهما كان وضعه المادي، ثم هي تحفِّز همّة زوجها كي يهتبل الفرصة قبل حلول العيد، ويشتدّ إقبال الناس على شراء الأضحية، مما يجعل، من جهة أخرى، أثمانها مرتفعة «.. **والنظر في شراء الأضحية اليوم أوفق من الغد..** » [13]. وهذه النظرة لا تخلو من بعد اقتصادي تمتعت به المرأة عبر العصور.

بين تلك النهاية، بما مثلته الزوجة من ثورة عارمة على شراء التيس، وهذه البداية الصاخبة، التي تحاول فيها دفع بعلها إلى الخروج لإحضار الكبش، يقدِّم الكاتب الشخصيات الرسمية في إحدى المدن الأندلسية – مالقة في القرن الثامن– مثل: الوالي، والمحتسب، والشرطي، والأمين، فهم الذين يقومون بالسهر على مصالح الناس، ويحرصون على أمن السوق، ومتاع التجار.

تبين المقامة أن هناك دكانا خاصا لتوثيق أمور البيع والشراء، فضلا عن تسجيلها لبعض المظاهر الصناعية، والاجتماعية، كإبراز صناعة الفخار باعتبارها حرفة يتعيّش منها صاحبها، وقد صوّرها حين فرّ التيس إلى داخل دهليز الفخّارة « .. فقام فيه وقعد، وكان العمل فيه مطبوخا ونيّا ، فلم يترك شيّا، ومنه كانت معيشتي، وبه استقامت عيشتي»[14] وهي، إلى ذلك، ذات سوق نافقة، وتجارة رائجة بما يستقيم معها عيش صاحبها.

ومن المظاهر الاجتماعية التي سجلتها المقامة ظاهرة " **البريح** "، فبطل المقامة يخرج إلى الأسواق والأنهج ينادي بحثا عن تيسه الفارّ صائحا « ... **من ثَقِفَ لي تيسا فله البشارة، بعد ما آتي بالأمارة...** »[15]. وهي ظاهرة ما تزال منتشرة في بلدان المغرب إلى سنوات قليلة خلت، وما إن يسمع الناس هذا النداء حتى يلتفُّوا من حوله، ويأخذوا في شدِّ خناقه، جزاء ما فعله التيس الهائج من شرور.

ولعل أفضل الصور التي استطاع الكاتب أن يبدع من خلالها، هي تلك التي خص بها طريقة تعامله مع القصاب وتيسه، منذ أن رأى القصابَ في حركة ونشاط يصيح بالطلاق إن وُجد مثل هذا التيس شدة، وكثرة شحم، وطيب

لحم [16]، فهو كما بدا لبطل المقامة دون البغل وفوق الحمار[17]. ثم يصور الحوار الذي دار بينه وبين القصّاب، فنمَّ عن قدرة فائقة على التصوير، كما بيّن مدى جشع القصّاب وأنانيته؛ فبعد أن وُثِّقت عملية البيع، وثُبِّتت عليه ديْنا ورهنا، رأيناه يُهمل التَّيْس تماما في غياب بطل المقامة الذي سعى إلى جلب الحمَّال، وهي أشبه بملامح التاجر في المقامة المضيرية للمهمذاني[18].

ولعل هذه المقامة من أكثر المصادر الإبداعية وغولا في الحياة اليومية لفئات اجتماعية معينة، كالنساء، والتجار، وبعض الموظفين الرسميين، مع أن المتلقّي يحسّ بأنها اختُلِقت برمّتها اختلاقا لتنطلي الحيلة على الأمير أبي سعيد بن نصر[19] صاحب مالقة، حتى يمنّ بكبش يجمع هذه الصفات النادرة التي تتوق زوجته إلى جمعها في كبش واحد.

ومن هذا الجانب، فإنها تنتسب إلى تلك المقامات التي شُهرت عن الهمذاني والحريري، واعتمدت الكُدية وسيلة للارتزاق والاستجداء.

هذه هي المقامة الوحيدة، فيما وصلنا إليه، التي تتفق كثيرا مع النمط المقامي في الأدب العربي الذي أرسى الهمذاني دعائمه، وأضفى عليه الحريري رونقا وجمالية، وذلك بما حوت من علاقات بين البطل، والمجتمع التجاري، والحركة التي تناول بها موضوعه، من لغة، وحوار، ووصف، ثم الحيلة الكبيرة التي أراد أن يمرِّرها على الأمير كي يهبه كبش العيد .

أما إذا عدنا إلى غيرها من المقامات، فإننا لا نعثر إلا على موضوعين رئيسيين، كما ذكرنا سابقا، فعبد المهيمن الحضرمي، مثلا، تصدى لتقديم مفاخرة بين عشر نساء « .. **بيضاء وسمراء في مفاتنة كبرى، وكاملة وقصيرة في معاطاة كثيرة، وسمينة ورقيقة في معاتبة حقيقية، وعربية وحضرية في مجادلة قوية، وعجوز وصبية في مخاصمة بذية** ... »[20].

والمقامة ذات قيمة فنية وأدبية فائقة، كشفت عن مقدرة الأديب الكبيرة، وثقافته الدينية المتينة التي استثمرها في نسج فصول هذا الصراع المرير بين هؤلاء النسوة، فهو فقيه ومحدِّث، ولعله من التعسف أن يلجأ، بعد ذلك، إلى إنطاق بطلاته بآيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم يشْرعْن في تبادل كلام بذيء، تفاخرا ومباهاة، أفليس غريبا أن تقول العجوز للصبيّة؟ : « .. وإن أردت يا هذه المجون والرقاعة، فأنا والله ربة الصناعة، وأستاذة الجماعة !. [21]. وإن عاد في النهاية وصالح بينهن على قاعدة الاقتناع بما رآه مقياسا للجمال!

وتبدو ملامح هذا التفاخر بين نساء المقامة الذي تحوّل أحيانا إلى قذف وشتم، في حوار جرى بين أبي الفتح الإسكندري وأحد رفاقه في المقامة الدينارية للمهذاني[22].

ولكن ذلك لا يعدو أن يكون من توارد الأفكار، وهو نتيجة المقام أكثر مما هو عملية تأثر؛ ذلك أن مقامة عبد المهيمن تعدّ تحفة فنية شائقة بلغتها الرشيقة، وشعرها السهل البعيد عن أي تكلف أو تقعّر.

ومثلما اتجه عبد المهيمن إلى تسجيل مفاخرات بين " **نسائه** " ، فإن ابن الخطيب أقام مفاخرة بين مالقة وسلا[23]، وهما مرفآن يقع أولهما في الأندلس وثانيهما في المغرب الأقصى، وفي سلا سكن المؤلف سنوات اغترابه الأولى.

والغريب أنه تنكَّر لهذه العشرة بقسوة في هذه المقامة، وأبدى جهالة تجاهها؛ فقد تعرضت مواضعها إلى نقد لاذع، بينما لاقت مالقة سيْلا من المديح، وأسبغ عليها كيلا من الصفات الحسنة[24].

تعرض الكاتب إلى نقد بعض المؤرخين بدعوى عدم اهتمامه بجوانب شهرتهما التاريخية والجغرافية [25]. بيد أن الرجل لم يكن مؤرخا، ولا هو بصدد كتابة معلومات جغرافية عن المرفإ، وإنما هو ببساطة أديب لا يعتني بتوثيق الأخبار بقدر ما يهمه تقديم صورة زاهية عن إحدى المدن الأندلسية، وإظهار تميزها عن "**سلا**" المرفإ الصغير، الذي بدا وكأنه ضحية يدفع ثمن اغتراب المؤلف في المغرب، فانتقم من المدينة التي آوته ونصرته .

أما أبو الحسن النُّباهي، فقد اختار نخلة لتكون بطلة لمقامته، حاورها الراوي وأبدى تعاطفه معها وهي في عزلتها بالقرب من قصر الحمراء، وحياها فبثته شجونها، ثم أبرز لها كرمة أخذت تفاخرها، وتحطّ من قيمتها، وتعيِّرها بالكبَر. يقول على لسانها: « ... وأنت لا كنت يا خشبة، فقد صرت من المنال عَشبة [26]، وأصبحت نذلى خالفه [27]، ورذلى بالهمِّ سالفة، لا يُجتنى بلَحك ولا طلْعك، ولا يُرتجى نفعك، فالأوْلى قطعك أو قلعك، وإلاّ فأين قنوك [28]، أو صنوك [29] أو تمرك أو سبرك [30]، هلاّ أبقيت يا فسيلة [31] على نفسك، وراعيت صلحة جنسك. ولقد انتهت بك المحارجة إلى ارتكاب ما لا يجوز، وفي علمك أن من أمثال الحكماء كل هالك عجوز. حسبك السمح لك بالمُقام ما دمت حية في هذا المقام » [32].

هذه الكلمات التي أنطق الكاتب" **كرمته** " بها تدل في ظاهرها على إثبات يناعة الكرمة واخضرارها، ويبس النخلة وكبرها، وقلة فائدتها؛ فهي موات مثل العيدان الغليظة اليابسة لا حياة فيها ، هزيلة مزدراة مثل المرأة القاعدة، أضحت بلا فائدة، لا يجتنى ثمرها ولا يرتجى خيرها، ثم إنها من دون أهل، ولا مالك يقتنيها، بلا ثمر ولا حسن أو بهاء، أوَ ليس من الأفضل قطعها وقلعها؟ وتمضي الكرمة في التجريح والتشنيع بها لأنها لم تعرف قدرها، ولم تسمع قول الحكماء عن هلاك العاجزين المسنين، ثم تعطف مدعية أن بقاءها، حتى الآن، في مكانها وحده فضل كبير.

هذا هو ظاهر القطعة، أو ما ترمي إليه المقامة في معناها الظاهري، ولكن الدلالة العميقة، التي تفرزها القراءة المتأنية لما بين السطور، تتجلَّى في الحالة المزرية التي وصل إليها العنصر العربي المسلم في هذا الثَّغر البعيد عن عاصمة الخلافة، والذي يوشك أن يتهاوى وتنمحي آثاره، فالنخلة شجرة عربية أصيلة، والرمز بها لا يكون إلا لأصول الأشياء، أما الكرمة، فهي دون ذلك أهمية عندهم، بل ربما كانت شجرة غربية تنبت في أرض خضراء ممطرة.

ثم، دعنا نمعن النظر في هذه المفردات ذات الدلالة المباشرة مثل: القطع والقلع، واليباس، والازدراء، والخشبة، والعشبة، والتساؤل عن: الصنو، والقنو، والسبر. كل هذه الألفاظ المشحونة بدلالات الاجتثاث تصب في قناة الرمز الكلِّي الذي رمى إليه الكاتب باقتلاع الجنس العربي والمسلم من الأندلس، وهو أمر واقع استشفه من قراءته للماضي والحاضر.

لقد أضحى العنصر العربي والمسلم في الأندلس مثل النخلة الغريبة العجوز التي لا أهل لها ينصرونها، ولا أقارب يحمونها، ولم تكن الكرمة المباهية الصَّلِفَةُ سوى العنصر النصراني الذي يحاول بشتى وسائل القتل إفناء المسلمين، وتفريغ الأندلس منهم. وقد اشتكت النخلة بمرارة« .. **من عدوان جُعْسُوس من لعيوش اليهود**

أوالمجوس، يفحص بمُدْيَتِهِ عن وريدي .. ويجدع كل عام بخنجره أنفي ، وكلما رمت كف إذايته عني، كشم[33] كفي [34] .. » [35].

وهذا الجعسوس الذي يعبث بمُديته في جسمها، والذي يزداد شراهة كلما حاولتْ صدَّه ، لم يكن سوى نصارى إسبانيا الذين تجمّعوا من كل صوب، وقدموا من كل حدب، يقضمون المدن الأندلسية واحدة بعد أخرى، ويجدعون أنف الأندلس شيئا فشيئا، حتى حوصر المسلمون أخيرا في هذا الجزء الذي يضم غرناطة وأحوازها الممتدة على سيف البحر.

ولذلك، فإننا نقرأ كلمات متعاطفة مع النخلة، يعلنها الراوي، وهو يحسم حوار المفاخرة بينها وبين الكرمة [36]. ويعقب ذلك توجّه الكاتب – الراوي – بنداء إلى الوزير لسان الدين بن الخطيب وسلطانه يطلب منهما الاعتناء بهذه الشجرة الغريبة [37]، فهما أولو الأمر، وعليهما واجب النهوض بأعباء المسؤولية كما ينبغي، ولعله يشير إلى مسؤولية السلطان ووزيره في الدفاع عن هذه الأمة الغريبة بأرض الأندلس، البعيدة عن النصرة.

وبعد، فإنه ليس النُّباهي بأول من جعل النخلة موضوعا أدبيا يتحدث من حوله أوعنه، وإنما سبقه شعراء [38]، وكتاب [39] كثيرون إلى ذلك. ولكننا نحسب أن المعاني التي تضمنتها مقامة النباهي بما شُحنت من دلالات عميقة تلمس مواطن الداء من خلال النخلة، تلك الشجرة العربية الأصيلة، ومن ثم دعوته أولي الأمر إلى العمل على اتقاء المصير المرعب لهذه الأمة الشبيه بمصير النخلة، هي دلالات غير مسبوقة.

إذا تجاوزنا أسلوب المفاخرة، فإننا نجد الكتّاب يعتمدون أسلوب الرحلة في كتابة المقامة. ويبدو ابن الخطيب صاحب قصب السّبق في هذا المجال، فقد رحل صحبة الركب السلطاني داخل الأندلس، وكتب مقامة تسجل تحركاتهم أسماها "**خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف** " السالفة الذكر، كما كتب مقامة" **معيار الاختيار**"، جمعت أهم عناصر المقامة في الأدب العربي: من راوٍ، وبطل، وحوار، وسرد، وعناية بالناحية الفنية. ولكنه، فيما يبدو، تفرّد بالموضوع؛ إذ جعل مقامته في مجلسين، لكل منهما بطل جوّاب آفاق، يفيدها الأول بمعلومات عن المدن الأندلسية، ويتصدى الثاني لتقديم المدن المغربية الخاضعة لسلطان بني مرين. وبذلك يكون الكاتب قد اهتم بتعليمنا أولا فائدة أدبية، ومن ثمَّ قدّم لنا فائدة جغرافية وتاريخية.

وقد عجز بعض المؤرخين [40] عن فهم هذه الحقيقة حين ظنوا أن على الكاتب أن يقدم مادة جغرافية وتاريخية واضحة ومحددة، فكالوا له النقد على إهماله ذلك، واقتصاره على العناية بالجانب الفني والجمالي، مما حرمهم من تلك المادة، ففاتهم التفطن إلى غاية الكاتب الرئيسة، غير أن الدكتور حسين مؤنس يعدّها، مع ذلك، من أحسن ما كتب العرب في أدب المقامة[41].

استطاع ابن الخطيب في هذه المقامة أن يبدع من ناحية الموضوع ، على الرغم من عنايته الواضحة بالجانب الفني، واختيار اللفظة المناسبة على طريقة العرب في بناء فن المقامة. وإذا كان قد عُني فيها بتقديم معلومات جغرافية وتاريخية واجتماعية عن مدن أندلسية ومغربية، فإنه في مقامة " **قطع الفلاة** " [42] يُعنَى بالترجمة، وتقديم بعض الأحكام الأخلاقية والنقدية عن بعض أعلام عصره من الولاة، عن طريق الحوار الذي يدور بين الراوي والبطل الذي يجوب المنازل مرة كل سنة كالشمس. فهو يعرف سكانها وولاتها [43] خير المعرفة، يسأل الأول عن كل والٍ باسمه، فيجيبه الشيخ عن كل واحد بما يعرفه عنه، فاختلفت القيم لديهم بين الجهل [44] والعلم، والظلم والعدل، وإكرام الضيف[45].

هكذا يبدي ابن الخطيب مهارة فائقة في تسخير كل الأجناس الأدبية للتعريف بعصره تأريخا وترجمة، ولم تفتر همته حتى أمام المقامة بمقوماتها المعروفة، فسخر بعضها للتعريف بالمدن، وأخرى للتعريف بالأعلام، من دون الإخلال بالقواعد الفنية للمقامة. ولا شك في أن هذه المقدرة تنمّ عن الشخصية الفذة للأديب ابن الخطيب .

الوصف في المقامة :

يبدو أن كتّاب المقامة قد اعتنوا بعنصر الوصف عناية كبيرة، وقد اختلفت مجالاته لدى كل منهم ، فهناك من تصدى للبيئة الاجتماعية، في قطر واحد، وهناك من اهتم بوصف البيئة الجغرافية، وأوْلى عناية خاصة بالمدن، كما أن هناك من اهتم بالبيئة السياسية، فوصف ما كان يجري في المغرب والأندلس من أحداث سياسية وفتن، ونزاعات دموية بين الدول، ولكن ذلك لا يعني أن هناك مقامات اختصت بتصوير بيئة من دون التعرض لغيرها؛ إذ لم يحدث أن تفردت إحداها ببيئة معينة إلا في القليل النادر، ذلك أن التوجه العام في اهتمامات المقامة في القرن الثامن، كان التعرض بالوصف لكل ما يعترض كاتب المقامة من أحداث أو عادات، أو أعلام ،أو مدن، أوغير ذلك من المظاهر الطبيعية .

وسنعرض لبعض الاهتمامات الجغرافية التي وردت في ما كتبه ابن الخطيب من مقامات. يقول في مقامة معيار الاختبار عن سبتة : "... **بصرة علوم اللسان، وصنعاء الحلل الحسان، وثمرة امتثال قوله تعالى: "ان الله يأمر بالعدل والإحسان**"، الأمينة على الاختزان، القويمة المكيال والميزان، محشر أنواع الحيتان، ومحط قوافل العصير والحرير والكتان، وكفاها السكنى ببنيوشن[46] في فصول الزمان، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان، والمدفن المرحوم غير المزحوم، وخزانة كتب العلوم، والآثار المنبئة عن أصالة الحُلُوم إلا أنها فاغرة أفواه الجيوب للغيث المصبوب، عرضة للرياح ذات الهبوب، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجُنوب، وناهيك بحسنة تعدُّ من الذنوب، فأحوال أهلها رقيقة، وتكلفهم ظاهر، مهما عرضت وليمة أو عقيقة، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة، وأنساب نفقاتهم، في تقدير الرزق، عريقة، فهم يمصون البلالة[47] مص المحاجم[48]، ويجعلون الخبز في الولائم بعدد الجماجم، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم، وراعي الجديب بالمطر الساجم"[49] من خلال هذا النص الوصفي لمدينة سبتة نلحظ أبعادا مختلفة من ضروب الحياة بها، وقد أبرزها الكاتب بوساطة الوصف، والاعتماد على مفردات معينة، فحين تكثر مفردات مثل: المكيال، والميزان، وحلل صنعاء، والكتان، والحرير، ورخص المساكن، وكثرة الحيتان نعرف أن الكاتب يعالج شأنا اقتصاديا لهذه المدينة، وحين نجده يحفل بعبارات مثل "بصرة علوم اللسان" و"خزانة كتب العلوم" ندرك أنه يبين علو شأنها في اللغة والأدب، وحين شرع في وصفها بالعدل والإحسان، وطريقة اقتصادهم في الحفلات، وتنظيمها تنظيما محكما من خلال "مصهم للبلالة مص المحاجم" أي مص البلل مثل ما يمص الرُّضَّع أثداء أمهاتهم، عرفنا أنه يشير إلى ظاهرة اجتماعية تشبه البخل منتشرة بين سكان سبتة، ثم إنهم قوم يحبون بلدهم حبا يصل درجة الافتتان، وهذا من طبائع الأمور. ولا يخلو النص من وصف مظاهر طبيعية مثل كثرة الأمطار، حتى ليظن المرء أن السماء قد فغرت فاها، وكذلك شدة هبوب الريح بها، والغريب أنه مع كل هذه الأمطار، فإن الحرث منعدم بها، والحبوب قليلة.

ومثل هذا الوصف الجغرافي ذي الطابع الأدبي نلحظه بكثرة في مقامات ابن الخطيب.

العنصر الذاتي في الوصف :

يتسم أدب المقامة بالذاتية على غرار أغلب الإبداعات الأدبية، وهو أمر طبيعي، فضمير الأنا عنصر أساسي في لغة الخطاب لدى كتاب المقامة. إلاّ أننا لسنا بصدد نفي وجود وصف موضوعي في المقامات، فهو في الحقيقة ليس موضوع هذه الدراسة؛ ذلك أن البحث يستهدف بيان الأثر النفسي، والانفعالات في رسم أبعاد ذاتية إضافية لوصف بعض الأحداث والمناظر الطبيعية، وحتى الأعلام، بحيث تنتفي الحقيقة المجردة تماما، فالصورة التي ينقلها كاتب المقامة هي في النهاية إسقاط لمشاعر وأحاسيس آنية.

كانت "سلا " موطن اغتراب ابن الخطيب حين خرج من الأندلس أذل من وتد في قاع، فشملته بدفئها طوال ثلاث سنوات، وعاش فيها منعما مرفها. ولكنه سرعان ما تخلى عن هذه النعمة حين زالت الغمّة، وعاد مكرّما إلى غرناطة ذا نفوذ أقوى، فأبدى نفورا كبيرا من المغرب من خلال مقامته التي يفاخر فيها بين مدينة "مالقة" الأندلسية ومدينة "**سلا**" المغربية التي نالت منه ما ناله "سنمار" من صاحب القصر، وها هو اليوم يكيل لها القدح كيلا، ولا يرى فيها سوى ما هو حقير، وذميم، وفقير، مزريا بكل ما اشتهرت به وما ضمته، وأما "**مالقة**" فيرفعها إلى عنان السماء، ويهبها كل صفات الحسن، والعظمة والفضل، ولا ندري أحقا كانت "سلا" على درجة كبيرة من الحقارة ؟ أم أن هذه النقمة التي يصبها الكاتب على كل ما هو جميل فيها مردها شدة تلك الأيام عليه، وذله فيها؟ فهل هو ينال منها حين يحط من شأن "**سلا** " ؟ أم أن ما ذهب إليه حسين مؤنس، حين عزا ذلك التهجم والازدراء إلى شعور الأندلسيين عامة بالزهو والتعالي على المغاربة وغيرهم، هو الحقيقة؟ ثم يضيف ".. **وهو مذهب مشكور لو أن الأندلسيين أيدوه بالتفاني وبذل الأرواح، ولو فعلوا لنجت غرناطة قطعا من الهلاك** "[50].

على الرغم من وجاهة هذا الرأي، فإنه لا مسوِّغ لابن الخطيب الذي ظل يتنقل بين الأندلس والمغرب، في ولوج هذا الأمر، إنما نرجح دافعا أقوى يحفزه على إجراء هذه المفاضلة؛ هو دافع الانتقام من مرحلة أحس فيها بالذل والهوان، وهذه المرحلة هي مدة اغترابه الأول، حين أقام بمدينة "**سلا**"، وإلا فلماذا ذكر "**سلا**" في مقامته "**معيار الاختبار**"[51] بكل خير، وأعطاها حقها من الصفات الحسنة التي تميزها وتشتهر بها. ولم يختلف التقويم إلا لاختلاف مكان الكتابة وزمنها، فقد كتب "**المعيار**" الذي اتسم بموضوعية واضحة في"**سلا**"، حيث كان مغتربا، بينما كتب مقامته في المفاضلة بين المدينتين المذكورتين في الأندلس بعد انقشاع غمة النفي والاغتراب.

بناء المقامة :

طرأ على المقامة المغربية والأندلسية تغيّر كبير، أبعدها عن مقومات المقامة المألوفة في الأدب العربي، فقد اختلفت موضوعاتها وتنوّعت، بل ربما رسّخت مضامين استجدّت قبل زمن في الأندلس [52]، مثل غياب ظاهرة الكُدية التي كادت تنمحي تماما، فلم نعثر في مقامات القرن الثامن إلا على صورة باهتة للكدية والاستجداء كما عرفتها المقامة المشرقية؛ فقد كتب الأزدي " **مقامة العيد**"، وأكدى فيها على أمير مالقة، كي يحصل منه على كبش العيد، حين عمد إلى تصوير تعاسته وشقائه في سبيل الحصول على أضحية ترضي زوجته السليطة اللسان التي كانت تنغِّص عليه حياته، كي يشتري لها كبشا سمينا أقرن مثل كبش الخطيب، وهو لا يملك ثمن تيس تعيس، وقد بسطنا القول فيها من قبل. وما عدا هذا، فقد اتجه كُتَّاب المقامة اتجاها آخر تماما في موضوعات مقاماتهم، ففاضلوا بين المدن كما فعل ابن الخطيب، حين كتب مفاخرة بين " **مالقة** " الأندلسية و" **سلا** " المغربية، أو رحلوا كما فعل هو نفسه حين كتب "**خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف**"، فكتب رحلة بأسلوب المقامة وتحدث فيها عن معلومات جغرافية وأدبية، وبذلك تتخذ المقامة قالب الرحلة. كما كتبوها في قالب رسالة

أو ما يشبهها مثلما فعل ابن الخطيب حين كتب إلى أبي عنان رسالة وجعلها ضمن باب المقامات في الريحانة[53]. وهناك مقامة كتبها الفقيه والكاتب المغربي ابن عبد المهيمن الحضرمي [54]، بناها على المفاخرة والمناظرة بين عشر جَوار، كل منهن تدّعي الحسن والكمال لنفسها[55]. ويبدو أن هذا الأسلوب ليس جديدا تماما، فقد ظهر لدى الكتاب الأندلسيين في القرن الخامس للهجرة بخاصة [56].

وقد بنيت المقامة المغربية والأندلسية في القرن الثامن على الشعر بصورة كبيرة، وعوّلت عليه كثيرا في تنامي الحدث فيها، والمساعدة على إبراز الأوصاف اللازمة لذلك. ولعل أفضل مثال لذلك " **مقامة الافتخار بين العشر الجَوار** " السالفة الذكر التي بنيت على المناظرة كأسلوب حواري بين شخوص المقامة؛ فكلما برزت جارية بدأت مناظرتها بالشعر وثنّت بالنثر. وهكذا، لم تخل صفحة من صفحاتها من مقطوعة شعرية أو مقطوعتين.

نخلص إلى ظاهرة جلية تصادف الباحث، وهو يدرس فن المقامة في هذا العهد، وهي التأكد من انحسار شبه كلّيٍّ للتأثير المشرقي على بنية المقامة المغربية والأندلسية، ثم إن كُتَّابها حاولوا ترسيخ بعض العناصر التي ظهرت في الأدب العربي في الأندلس، ونرجِّح أن السبب كامن في خصوصية البيئة الأندلسية التي تشبعت بظاهرة التنقل وشد الرِّحال، وانعدام مظاهر التسوُّل في المجتمع الأندلسي والمغربي، وكذلك القيمة الاجتماعية للأديب الذي كانت تغلب عليه سمات الفقيه، والمكانة السياسية المرموقة في بلاط الدول؛ فهو إما خطيب، أوقاضٍ، أو كاتب ينتظم في المجلس العلمي للسلطان، وبخاصة عند بني مرين، وهو في النهاية يحس بالترفُّع عن أساليب التسوُّل والكدية .

ولكنها بالمقابل حافظت على البنية الأسلوبية بأمانة، فجاءت زاخرة بألوان البديع؛ من تسجيع، وتجنيس، وغيرهما، وحفلت، كذلك، بالتصوير والتشخيص، كما اعتمدت أسلوب السرد، والحوار. وهذه مقوِّمات لا نظن أن هناك مقامة يمكن أن تنهض على غير عُمدها.

الهوامش:

1 – عن تطورها الدلالي وأشهر أعلامها انظر:

. ضيف شوقي: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط 7، دار المعارف، القاهرة. ص 246، 297.

. سلطاني جميل: فن القصة والمقامة، دار الأنوار، بيروت. ص 20 .

. مرتاض عبد الملك: فن المقامات في الأدب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980. ص 9-23.

. نور عوض، يوسف: فن المفامات بين المشرق والمغرب. دار القلم، بيروت – لبنان 1979، ص5 . 10، 33 . 48.

2 – حازم عبد الله الأخضر: النثر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف والمرابطين، منشورات وزارة الإعلام، بغداد 1981. ص320.

. مبارك زكي: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1957 ص 311، 317، 324

3- ابن الأبار: محمد بن عبد الله بن أبي بكر البلنسي (658هـ)، التكملة لكتاب الصلة، منشورات العطار الحسيني، 1906. ص 260.

4- التنبكتي: أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية، بيروت. ص 206 .

5- الأزدي: أبو عبد الله محمد، مقامة العيد. تحقيق: أحمد مختار العبادي، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد،1954 مج 2 /159.

. ابن الخطيب: أبو عبد الله لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله (ت776هـ): الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة 1972. 3/ 421

6- ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة (د . ت). ص 151.

– ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة 1981. 2 / 270 من دون عنوان .

7– كنون عبد الله: النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1975. 2 / 195 .

8– ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، 2 / 355.

– ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق. محمد مختار العبادي، مطبعة جامعة الإسكندرية 1958ص57– 66.

9– ابن الخطيب: الإحاطة، 4 / 95.

10– الأزدي: مقامة العيد الأزدي، صحيفة المعهد المصري 172/02 – 173.

11– عن شروط الأضحية في الشرع ينظر: ابن جزي (الأب): أبو القاسم محمد بن أحمد (741ه) قوانين الأحكام الشرعية ومسائل الفروع الفقهية، دار العلم للملايين، بيروت 1979. ص 209 – 210.

12– الأزدي : مقامة العيد، مج 168/02 .

13– المصدر نفسه، 02/ 168.

14– المصدر نفسه، 171/02.

15– المصدر نفسه، 02/ 171.

16– المصدر نفسه، 169/02– 170.

17– المصدر نفسه، 02/ 170.

18– الهمذاني : بديع الزمان (ت398ه). المقامات. المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1965 ص 104.

19– هو صاحب مالقة والجزيرة، ووالد السلطان أبي الوليد إسماعيل خامس ملوك بني الأحمر.

20– كنون عبد الله : النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1975. 2 / 195.

21– المرجع نفسه، 2 / 206.

22– مقامات الهمذاني، ص 217.

23– سلا: هي الآن ضاحية مدينة الرباط الغربية، تطل على المحيط الأطلسي.

24– الريحانة، 2 / 355.

25– مؤنس حسين: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج 11 – 12 / 1963 – 1964، 1 / 304.

26– عشبة بالفتح، وليس بالضم كما ضبطها مؤلف الكتاب، لأنها بذلك تصبح عكس ما أراد صاحب المقامة. فالعُشب هو الاخضرار والنضارة، بينما أراد صاحب المقامة عكس ذلك أي اليباس والكبر، انظر المادة في اللسان .

27– المرأة القاعدة بالبيت.

28– القنو: المالك، والمغتني.

29– الصنو: المثل، والمعنى هنا الأهل والأقرباء.

30– السبر: حسن الحال والهيئة.

31– الفسيلة: الصغيرة من النخل، والمعنى هنا للتحقير.

32– الإحاطة، 4 / 97.

33– كشم: قطع واستأصل.

34– في الأصل: كفّ، والصواب ما أثبتناه.

35– الإحاطة، 4 / 96.

36– المصدر نفسه، 4 / 97 – 98.

37– المصدر نفسه، 4 / 98 – 99.

38– قصيدة لعبد الرحمن الداخل، صقر قريش، في نخلة رآها وحيدة برصافة قرطبة – ابن الخطيب: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، حققه ليفي بروفنسال، تحت عنوان: تاريخ إسبانيا الإسلامية، دار المكشوف، بيروت 1956. ص10.

39– رسالة ابن برد في النخلة. ابن بسام أبو الحسن علي(542 ه)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. الدار العربية للكتاب. ليبيا– تونس. 1981. 1/ 530/1 .

40– الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، ص 308.

41– المصدر نفسه، ص 307.

42- قطع الفلاة بأخبار الولاة – النفاضة ، ص 151. وانظرها من دون عنوان في الريحانة، 2 / 270 .
43- النفاضة، ص 155.
44- المصدر نفسه، ص 158.
45- المصدر نفسه، ص 160 – 161.
46- ببنيوشن : جبل مطل على المدينة .
47- البلالة : البلل.
48- المحاجم : الأطفال يمصون أثداء أمهاتهم.
49- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص 102.
50-الجغرافية والجغرافيون في الأندلس 302
51- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص 104-105.
52-النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، ص 344.
53- المصدر السابق، 1 / 246.
54- شيخ الكتاب المغاربة والأندلسيين، ولكن لم يبق لنا شيء من كتابته الرسمية، قال فيه ابن الخطيب: تاج المفرق وفخر المغرب على المشرق، ولد بسبتة سنة 676، ومات بالطاعون في تونس سنة (749 هـ) – الإحاطة، 4/ 11-18.
55- النبوغ المغربي، 2 / 195.
56- النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، ص 351 – 352.

المصادر والمراجع:

1 – ابن الأبار: محمد بن عبد الله بن أبي بكر البلنسي (658 هـ)، التكملة لكتاب الصلة، منشورات العطار الحسيني، 1906.
2 – الأزدي: أبو عبد الله محمد ، مقامة العيد. تحقيق: أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج 2 / 1954 .
3 – ابن بسام أبو الحسن علي(542 هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. الدار العربية للكتاب. ليبيا- تونس – 1981.
4 –التنبكتي: أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية، بيروت.
5 – ابن جزي (الأب): أبو القاسم محمد بن أحمد (741 هـ) قوانين الأحكام الشرعية ومسائل الفروع الفقهية، دار العلم للملايين، بيروت 1979.
6 – حازم عبد الله الأخضر : النثر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف والمرابطين، منشورات وزارة الإعلام، بغداد 1981.
7 – ابن الخطيب: أبو عبد الله لسان الدين بن الخطيب (ت776 هـ):
أ – الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة 1972 .
ب – ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة 1981 .
ج- أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، حققه ليفي بروفنسال، تحت عنوان تاريخ إسبانيا الإسلامية، دار المكشوف، بيروت 1956 .
د – مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس، تحقيق د. محمد مختار العبادي، مطبعة جامعة الإسكندرية 1958.
هـ – نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة (د.ت).
8 – سلطاني جميل: فن القصة والمقامة، دار الأنوار، بيروت .
9 –ضيف شوقي: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط7، دار المعارف، القاهرة.
10 – كنون عبد الله : النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1975 .
11 – مرتاض عبد الملك : فن المقامات في الأدب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980 .
12 – مبارك زكي: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1957 .
13 – مؤنس حسين: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج 11 – 12 / 1963 – 1964.
14 – نور عوض، يوسف: فن المقامات بين المشرق والمغرب. دار القلم، بيروت – لبنان 1979
15. الهمذاني: بديع الزمان (ت398 هـ). المقامات. المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1965.